مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
www.palestine-studies.org

مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 18، العدد 70 (ربيع 2007)، ص 91

إسرائيليات

ساره روي*

مناشدة يهودية

ليس لدينا ما نخسره سوى كل شيء.

ألبير كامو

في أثناء الصيف، أقمنا زوجي وأنا احتفال تهوّد ابنتنا بالتبني، جِسْ. أخذناها إلى المكفاه، وهو مغطس طقسي يهودي، حيث غُمرت تماماً في بركة الماء الحي – حي لأنه مستمد جزئياً من المطر السماوي – وأبقيت معلقة فيه بشكل موقت مثلما نكون في الرحم، وأخرجت منه الفتاة نفسها، لكن بعد أن تغيرت. ويعد هذا الطقس الذي يتم فيه التطهر والتحول والانبعاث مركزياً في الديانة اليهودية ويمثل التجدد والإمكان.

كان يوم تهوّد جِسْ اليوم الذي بدأت إسرائيل قصفها الوحشي للبنان، وجاء بعد قرابة ثلاثة أسابيع من الهجوم الإسرائيلي العنيف على غزة، وهي موطني الثاني في العقدين الأخيرين. ولا يزال هذا التجاور بين الانبعاث والدمار يلازمني، ويضغط عليّ بلا هوادة. مع ذلك فقد انكسر الآن، بالنسبة إليّ على الأقل، الارتباط المترسخ عميقاً في بنياننا الذاتي كيهود، بين قبول ابنتي في الديانة اليهودية وأعمال إسرائيل – بين اليهودية والصهيونية – وهو ارتباط لم أتقبله قط من دون نقد، وإنما أدركت أنه محتوم تاريخياً ومقبول.

فخلافاً للنزاعات السابقة بين إسرائيل والفلسطينيين والشعوب العربية، يبدو هذا النزاع مختلفاً نوعياً – نقطة تحول – لا فيما يتعلق بطبيعة رد إسرائيل المروع فحسب – استعدادها للتدمير والقيام بذلك بشكل تام – بل فيما يتعلق أيضاً بالدعم غير المحدود عملياً الذي يقدمه اليهود الأميركيون المنظمون إلى أعمال إسرائيل الوحشية، وهو أمر ليس جديداً لكنني لم أعد أستطيع احتماله الآن.

لقد نشأت في بيت لم تكن اليهودية تعرّف فيه وتمارس كدين بقدر ما كانت نظاماً أخلاقياً وثقافة. كان الرب حاضراً، لكن لم يكن حضوره مركزياً. وكانت إسرائيل وفكرة الوطن اليهودي مهمتين جداً بالنسبة إلى والديّ اللذين نجيا من أوشفتز وشلمنو وبوخنْڤالد. لكن والديّ، خلافاً للعديد من أصدقائهما، لم يكونا يمتنعان من انتقاد إسرائيل. فطاعة الدولة ليست قيمة يهودية أساسية، ولا سيما بعد المحرقة. واليهودية تقدم السياق للحياة اليهودية، للقيم والمعتقدات غير المتوقفة على الحدود القومية أو الإقليمية، لكنها تتجاوزها لتشمل الآخر، الآخر دائماً. وكانت اليهودية تعني لوالدي ووالدتي أن تشهد وتثور على الظلم وترفض الصمت. كذلك كانت تعني الرحمة والتسامح والإنقاذ. وقد علّماني أننا لا نكون يهوداً بغياب هذه الأمور الضرورية.

إن كثيرين ممن يكتبون عن الفلسطينيين والعرب – يهوداً وغير يهود على السواء – لا يقبلون الجوهر الإنساني للشعب الذي يكتبون عنه، وهو أمر ناتج من الجهل والخوف والعنصرية. ولقد كان دائماً من غير المقبول داخل الجالية اليهودية المنظمة على وجه الخصوص القول إن العرب، وخصوصاً الفلسطينيين، مثلنا، وإن لديهم أيضاً جوهراً إنسانياً ويجب إدخالهم ضمن حدودنا الأخلاقية، والكف عن اعتبارهم "نوعاً من الحل"، "آخر" عدوانياً مفيداً، على حد قول إدوارد سعيد.(1) لذا أي محاولة للفصل تكون مصطنعة وتجريداً.

برفضنا السعي للاقتراب مُحتمين بالبعد، فإننا نرفض بهدوء، بل بامتنان، رؤية ما هو حق أمام أعيننا. ولا نعود مجبرين – هذا إذا كنا كذلك أصلاً – على فهم سلوكنا من مواقع خارج مواقعنا، للولوج إلى داخل مآزق بعضنا بعضاً والقيام بإحدى أصعب رحلات العقل،(2) كما كتبت جاكلين روز. ومن ثم لا تعود هناك حاجة إلى المحافظة على صلة حية بشعب نقوم باضطهاده، وإلى إضفاء الإنسانية عليه، آخذين في الحسبان تجربة الإخضاع نفسها، كما يقول سعيد. ولا تعود قسوتنا تشغلنا أو تلاحقنا. وتصبح المهمة في نهاية المطاف هي إضفاء القبلية على الألم، وحصر نطاق المعاناة الإنسانية في أنفسنا وحدنا. ومثل هذا العمى المقصود يؤدي إلى تدمير المبدأ وتدمير الشعب، وإلى القضاء على كل إمكان لاحتضان الآخر، لكنه يقدم لنا العزاء.

لماذا من الصعب جداً، بل من المتعذر إدراج الفلسطينيين والشعوب العربية الأُخرى في الفهم اليهودي للتاريخ؟ لماذا لا يوجد سوى إدراك ضئيل للحاجة إلى التشكيك في روايتنا (لعدم وجود كلمة أفضل)، والرواية التي قدمناها إلى الآخرين، مفضلين بدلاً من ذلك التعلق بالمعتقدات والمشاعر التي تبقى عصية على الاختراق؟ ولماذا يكون المفكرون اليهود مجبرين فعلياً على معارضة العنصرية والاضطهاد والظلم في كل مكان في العالم تقريباً، ومن

غير المقبول – بل من الهرطقة بالنسبة إلى بعضهم – معارضتها عندما تكون إسرائيل هي المضطهِدة، ويفضلون الكتمان على الإفصاح؟ فالتاريخ والذاكرة يتلازمان بالنسبة إلى كثيرين منا للحؤول دون التفكير والتسامح، بحيث، كما يعبر عن ذلك نورثروب فراي، "لا يعود العدو شعباً يجب هزيمته، وإنما تجسيداً لفكرة يجب القضاء عليها."(3)

ماذا يحدث للآخر عندما نواصل، نحن الشعب المكسور والمنهك، إساءة معاملته، وتحويله إلى العدو الذي نريده الآن ونحتاج إليه [....]؟

ماذا يحدث لشعب عندما يرتبط الظلم والإحياء معاً باغتباط؟

مسار جديد للاوعي

إننا نتحدث بلا رحمة، غافلين عن ألم الآخرين، عاجزين عن التواصل – فاقدين الوعي. كلماتنا هي التالية:

- كتب زئيف شيف، المحلل السياسي والعسكري الكبير في صحيفة "هآرتس" ما يلي: "... علينا ألاّ ننسى أهم جوانب هذه الحرب: يجب تدمير حزب الله وما تمثله هذه المنظمة الإرهابية بأي ثمن... لا يهم مستقبل بلدة بنت جبيل الشيعية أو مواقع حزب الله في مارون الراس، لكن مستقبل دولة إسرائيل وسلامتها". "إذا لم تحسّن إسرائيل أوراقها العسكرية في القتال، فسنشعر بالنتائج في الحل السياسي."(4)
- صرح حاييم رامون، وزير العدل الإسرائيلي، المعروف منذ مدة طويلة أنه من السياسيين الحمائم، قائلاً: "علينا تسوية قرى الجنوب بالأرض... لا أفهم لمَ لا يزال يوجد كهرباء هناك. الناس جميعاً في الجنوب اللبناني إرهابيون ومرتبطون بحزب الله... وعلينا أن نستخدم هناك قوة نيران هائلة قبل أن تدخل القوات البرية." وعبرت أكثر الصحف الإسرائيلية مبيعاً، "يديعوت أحرونوت"، عن ذلك كما يلي: "القرية التي تُطلق منها الصواريخ على إسرائيل يجب ببساطة أن تُدمر بالنيران. كان يجب اتخاذ هذا القرار وتنفيذه بعد انطلاق أول صاروخ كاتيوشا. لكن أن يأتي القرار متأخراً خير من ألاّ يأتي على الإطلاق."(5)
- قال رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي، دان حالوتس: "سنقصف 10 مبانٍ في الضاحية في مقابل كل رشقة كاتيوشا على حيفا." واقترح إيلي يشاي، نائب رئيس الحكومة الإسرائيلية، تحويل الجنوب اللبناني إلى "صندوق رمل"، في حين دعا عضو الكنيست موشيه شاروني إلى محق غزة، واقترح يوآف ليمور، المراسل العسكري للقناة الأولى، عرض جثث عناصر حزب الله، يليه موكب للسجناء بلباسهم الداخلي من أجل "تقوية الروح المعنوية للجبهة الداخلية."(6)
- نشر إعلان في "هآرتس" فحواه: "تذكروا: الحساسية الفلسفية المشوهة [كذا] تجاه الحياة الإنسانية ستجعلنا ندفع الثمن الحقيقي بأرواح كثيرين وبدماء أبنائنا."(7)
- أعلن مجلس حاخامي ييشا التالي: "وفقاً للشريعة اليهودية، لا وجود لعبارة مثل (أبرياء العدو) في زمن القتال والحرب."(8)
- رأى مجلس الحاخامين الأميركيين ما يلي: "لكن عند الحديث عن عقيدتنا اليهودية وميراثنا القانوني، نعتقد أن اليهودية لا تطلب من الجندي اليهودي ولا تسمح له بأن يضحي بنفسه من أجل إنقاذ مدنيي العدو العرضة للخطر عمداً. وينطبق ذلك على وجه الخصوص عند مواجهة عدو بربري يسعى، عن طريق مثل هذه الوسائل غير المشروعة والمتسقة والمنهجية، لا للقضاء على الجنود الإسرائيليين فحسب، بل لإلحاق الهزيمة بالوطن اليهودي وتدميره أيضاً. والوقائع الجديدة تحتاج إلى ردات فعل جديدة."(9)
- كتبت المؤلفة الإسرائيلية ناومي راغان بعد أن عرفت أن كثيرين من قتلى الحرب في لبنان أطفال، "وفروا عاطفتكم لأمهات وأخوات وصديقات جنودنا الشبان الذين يُفضل أن يكونوا جالسين في قاعات الدراسة يتعلمون التوراة، لكن لم يكن أمامهم خيار سوى المخاطرة بأرواحهم الغالية الممتلئة بالأمل، وطيبتهم، وإمكاناتهم التي لا حدود لها، للقضاء على الخلايا الإرهابية السرطانية التي تتهدد شعبنا والإنسانية جمعاء. احسموا خياركم ووفروا دموعكم."(10)

لقد أعلن كثيرون منا، وربما معظمنا، أن الفلسطينيين واللبنانيين جميعهم أعداء يهددون وجودنا – أي وجود إسرائيل والشعب اليهودي. لذلك فإن كل شخص نقتله وكل بيت ندمره هو هدف عسكري شرعي ويستحق ذلك المصير. الإرهاب جزء من ثقافتهم، وعلينا أن نقوي قدرتنا على الردع. والمفاوضات، كما كتب العالم الإسرائيلي

يهوشواع بورات في أثناء حرب لبنان في سنة 1982، "كارثة حقيقية على إسرائيل." وميدان القتال هو الكفيل بالمحافظة على بقائنا.

لاحظ الناقد والمؤرخ الفرنسي هيبوليت تان: "تصوروا رجلاً ينطلق في رحلة مجهَّزاً بنظارة تكبّر الأشياء بدرجة غير عادية. ستسترعي انتباهه الشعرة على يده، والبقعة على غطاء الطاولة، والثنية المتغيرة في المعطف؛ وفي هذه الحالة لن يبتعد كثيراً، إذ سيمضي النهار من دون أن يخطو أكثر من ست خطوات، ولن يخرج من غرفته."(11)

نحن قانعون بالبقاء في غرفتنا ولا نسعى للخروج.

في غرفتنا، تُستبعد الرحمة والضمير باعتبارهما ضعفاً، في حين تُعتبر الضربات الجراحية الدقيقة ضبطاً للنفس ومدنية، ويعتبر وقف إطلاق النار الموقت عملاً إنسانياً وعطفاً. "غادروا بيتكم فسندمره". وبعد عدة دقائق يُسحق بيت آخر في غزة، وتاريخ آخر. ومع أن الإنذار ليس لهم وإنما لنا – فهو يجعلنا أخياراً ونظيفين. فهل هناك دليل أفضل على أخلاقنا: عندما تعتبر دعوة المرء إلى مغادرة بيته قبل دقائق من قصفه التفاتة إنسانية؟

كما أن لإنذاراتنا غاية أُخرى: فهي تجعل أعمالنا شرعية، ورغبتنا في الشرعية غير محدودة وجشعة. ولعل هذه الرغبة هي الشيء الوحيد الذي أمسكه عنا الفلسطينيون (والآن اللبنانيون). وإذا كانت الشرعية لن تمنح فلا بد من ابتكارها. وهذا ما يفسر استحواذ القوانين والشرعية على الفكر الإسرائيلي لنضمن، في نظرنا، أننا لا نتجاوز الحدود، ونجعل الشر مسموحاً به عن طريق توسيع أبعاد حرية التصرف والتجاوز. وبهذه الطريقة نضمن أننا أخيار وأخلاقيون، عبر قطعة ورق تكفي في نظرنا.

ما الذي يستطيع اليهود مقاومته الآن: الاستبداد؟ الاضطهاد؟ الاحتلال؟ الظلم؟ لم نعد نقاوم أياً من هذه الأمور. فهي لم تعد بالنسبة إلى كثيرين منا شراً، بل ضرورية وخيّرة – لا يمكننا العيش والبقاء من دونها. وماذا يجعل ذلك منا؟ ننظر إلى أنفسنا فماذا نرى: طفلاً غير يهودي، نلحق به الألم بلا عناء، وموته مطلوب من دون تشكيك، بل يحمل صلاحية قانونية وغاية.

ماذا نرى: شعباً يستمتع الآن بكره الآخرين. الكراهية مألوفة لدينا إذا لم نقل شيئاً آخر. إننا نفهمها وهي خالية من الأخطار. إنها ما نعرفه. فنحن لا نخاف من تشويهنا – هل نراه حتى؟ – لكن نخشى فقد قدرتنا على الردع، ونرتجف بشدة من أي حل يتجنب معاناة الآخرين. مرضنا هو التالي: إنه يكمن في نضالنا لاحتضان أخلاقية لم نعد نمتلكها، وفي حاجتنا إلى اضطهاد لم يعد في وسعنا ادعاؤه، لكن التسبب به فحسب.

إننا بعيدون عن العالم الواعي – متفوقون في الجهل، وحالمون بشكل أعمى، وغير قادرين على المقاومة من الداخل. إننا نعيش في مكان لا يتغير، لا تبدل فيه ولا تفكير، لا حياة طبيعية فيه ولا نمو، والأهم من ذلك كله، هو خال من الآخر – أو نهدف إلى ذلك. إنه غيتو، لكنه الآن، خلافاً للسابق، غيتو من صنعنا.

ما هي روايتنا للنصر والهزيمة؟ ما الذي يعنيه إحراز النصر؟ سيارات مقصوفة لا تزال الأعلام المدنية البيض معلقة بنوافذها؟ أم مزيداً من قتلى وأشلاء شيوخ وأطفال متناثرة في القرى التي دمرت؟ بلد بأكمله محطم ومعطوب؟ حرب لا نهاية لها؟ هذا هو نصرنا، وإنجازنا، هذا هو الشيء الذي نسعى ونصفق له. وكيف نقيس الهزيمة؟ فقدان الإرادة على متابعة التدمير؟ أم الاعتراف باضطهادنا الآخرين، وهو شيء لم نفعله قط؟

يمكننا أن نتجاهل معاناتهم بسهولة، وأن نقطع عنهم الغذاء والماء والكهرباء والدواء، وأن نصادر أرضهم ونتلف محاصيلهم ونمنعهم من الخروج – نخنقهم من دون أن تعلو أصواتنا. العنصرية تمنعنا من رؤية العرب كما نرى أنفسنا؛ ولذلك نغضب عندما نراهم لا يفشلون على الرغم من ضعفهم. لكن، بدلاً من ذلك، نفشل نحن على الرغم من قوتنا. مع ذلك فإننا، من وجهة نظرنا، نحن الضحايا الوحيدون العرضة للخطر والمجروحون. وكل ما لدينا هو افتقار وضعنا إلى الطبيعة السوية.

لعلنا وصلنا كشعب ينقصه الوعي إلى الحضيض، إذ يدعو كثيرون منا الآن إلى إعادة تعريف أخلاقنا – الجوهر الذي نقوم عليه – ليشمل الحاجة إلى قتل النساء والأطفال إذا كان الأمن اليهودي يتطلب ذلك. "الوقائع الجديدة تحتاج فعلاً إلى ردات فعل جديدة"، كما يقول مجلس حاخامي أميركا. والعنف، بالنسبة إلينا الآن، هو الخَلْق، والسلام يعني الدمار.

إنهاء عملية الخلق
والانبعاث بعد المحرقة

هل يمكن أن نكون عاديين، وهذا جزء أساسي من انبعاثنا بعد المحرقة؟ هل من الممكن أن نكون أسوياء عندما نستجير بالهامش، ونسعى للعلاج بحرمان شعب آخر من أملاكه وتدميره؟ كيف يمكننا أن نخلِق عندما نتقبل عن طيب خاطر نسف البيوت، وإقامة الحواجز، وقطع الرزق، وإلحاق الخراب بالأبرياء؟ كيف يمكن أن نكون رحماء عندما نسعى، على حد قول روز، لِـ "القدرة المطلقة باعتبارها الرد على الألم التاريخي"؟(12) إننا نرفض الاستماع إلى مناشداتهم، ورؤية المطرودين من بيوتهم، والأطفال يُحرقون في أحضان أمهاتهم. وبدلاً من ذلك نطلب من أطفالنا الكتابة على القنابل التي ستحرق الرضّع العرب.

نقول إن علينا القضاء على الإرهاب. ما الذي نعرفه حقاً عن إرهابهم، وعن إرهابنا؟ وماذا يهمنا؟ بدلاً من ذلك ننخرط، بلغة مجردة وموبوءة – "امنحوهم [الجيش الإسرائيلي] مزيداً من الوقت للقصف كي تصبح حدود إسرائيل طبيعية" – مراراً وتكراراً في حرب منشودة، حرب ليست مفروضة علينا بل من اختيارنا، مسرورين بالقدرة على تدمير الآخرين وفاقدين الشعور أمام موت أطفالنا. لقد تساءل الكاتب الإسرائيلي دافيد غروسمان: ماذا يحدث لأمة لا تستطيع أن تنقذ أطفالها؟ وذلك قبل مقتل ابنه في لبنان.

ثمة مشاعر حقيقية بين الإسرائيليين بالخوف وعدم المنعة، وقد اشتدت لأنها لم تُعالج بل استُغلت. من أكثر المشاهد فظاعة رؤية المرء إصابة ابنه أو مقتله – الإسرائيليون أقل منعة بكثير من اليهود الآخرين. مع ذلك فقد أصبحنا كشعب قوة للتطرف والفوضى والاضطراب، محاولين حرث بحر هائج – أدمنا الموت والقسوة، سكارى، يدفعنا طموح وحيد: الاستهزاء بالفقير المعدم.

طالما تباهت اليهودية بالتأمل والتفحص النقدي والاستقصاء الفلسفي. فالعقل التلمودي يتفحص الجملة والكلمة بعدة طرق، ناشداً كل التفسيرات المحتملة وباحثاً باستمرار عن التفسير الذي لم يتم التطرق إليه. ويُعتقد أنه من خلال هذا التمحيص يأتي الوعي بالحاجة إلى حماية البريء، وتجنب إلحاق الضرر أو الأذى، والاقتراب من الرب.

هذه الأمور بغيضة الآن ومنزوعة من نظامنا الأخلاقي. وبدلاً من ذلك، القاعدة الحتمية هي النظر بعيون مغمضة لا يعنيها التمحيص. فنحن نخفي ذنبنا بأن نبقى المُساء إلينا، على الرغم من قوتنا، وأن نخلق أوضاعاً تكون فيها استحالتنا إلى ضحايا مضمونة وبراءتنا أكيدة. إننا نفضل هذه الهوة على السلام الذي يمكن أن يقذف بنا إلى داخلنا بشكل غير مقبول نحو الوعي والاعتراف.

لا يشعر اليهود بالخجل مما ابتدعوه: قائمة طويلة من الأعمال اللاإنسانية. وبدلاً من أن نخجل لا نزال راضين بشكل مستغرب، بل إن الدمار الذي نلحقه يهدئ من روعنا. إن لامبالاتنا تتيح لنا تحمّل مثل هذا التجاوز (وارتكابه)، والجلوس في المقاهي اليهودية، بينما الأمهات الفلسطينيات يُقتلن أمام أطفالهن في غزة. يمكنني الآن أن أفهم بشكل أفضل كيف تحدث الأشياء المرعبة – كيف يسمح الأشخاص، من دون أن يكونوا هم أنفسهم أشراراً، بحدوث الشر. إننا نسكّن جروحنا بعجزنا عن الندم، الأمر الذي سيسبب خرابنا.

بدلاً من ذلك تحتاج الجالية اليهودية إلى الوحدة والانسجام: ارتفعت لافتات، في الصيف الماضي، على الكنُس في كل أنحاء بوسطن تقول: "قفوا مع إسرائيل". الوحدة على ماذا؟ ثمة ضغط هائل – بل إكراه – في نفوس اليهود الأميركيين المنظمين لإبراز مظهر "وحدة تامة"، على حد قول زعيم يهودي محلي. لكن هذه الوحدة وهْم – يوجد عند حوافها نار تلتهب بسرعة وتحيط بقلبها – إذ إن التيار السائد لليهود لا يتحدث باسمي أو باسم كثيرين من اليهود الآخرين. وحيثما توجد هذه الوحدة فإنها جوفاء مبنية على الخوف لا الإنسانية، وعلى الحاجة إلى فهم الواقع كما رُسم لنا منذ مدة طويلة – أن اليهودي هو الضحية الصالح، والبريء غير القادر على الإيذاء، وكأن التأييد الصلب للقوة العسكرية الإسرائيلية "يتطلب جعل عقولنا كما كانت في أوشفتز، حيث يتعرض وجودك للخطر لأنك يهودي، ومجرد كونك يهودياً يعني أن تكون مهدداً، ليس إلاّ. ومن ثم فإن الأخلاقية الوحيدة التي يمكننا الاعتراف بها هي إنقاذ إسرائيل، وبالتالي أنفسنا."(13) وضمن هذا النموذج، الشقاق لا التطابق هو الذي يقلصنا ويدمرنا. لذا نختزن اضطهادنا كما نختزن هويتنا – إنهما واحد – غير قادرين على التغير، والفشل في ذلك سيؤدي إلى طردنا ذات يوم. هل هذا هو ما فعلته الصهيونية باليهودية؟

إن أعمال إسرائيل لا تبين حدود القدرة الإسرائيلية فحسب، بل حدودنا كشعب أيضاً: عدم قدرتنا على العيش من دون حواجز وتحرير أنفسنا من الولاء الإثني الذي يربط ويشوه ويحول دون الخروج، في النهاية، من غرفتنا الشبحية.

إنهاء الصلة (البنوية/filial) بين إسرائيل والمحرقة

يسألون كيف يستطيع أبناء المحرقة القيام بهذه الأشياء؟ لكن هل نحن حقاً من ذريتهم؟

عندما يموت الناجي من المحرقة، يرتد هول تلك الفترة والدروس المصاحبة لها إلى فكرة مجردة، وإلى الاغتراب بالنسبة إلى بعض اليهود، وكثير منهم في إسرائيل. وهكذا لا تبرز المحرقة كدرس، لكن كعمل تطهري أبدي، إذ يكون الارتباط القبلي، لا المسؤولية الأخلاقية، مطلوباً ويستخدم لتعريف العمل الجماعي. وربما كان ذلك النتيجة المحتومة للقومية اليهودية، ولإضفاء القداسة على السياسة، لكن أياً يكون مصدرها، فقد أضعفتنا كثيراً وكلفتنا باهظاً.

كتبت سيلفيا تيننباوم، وهي ناجية من المحرقة وناشطة: "بصرف النظر عن عظمة منجزاتنا في الشتات، وبصرف النظر عن أنه كان منا ابن ميمون وسبينوزا وموزس مندلسون ومئات من اليهود الآخرين الذين أفادوا الإنسانية — لا يوجد أي محارب بينهم! — فإننا ننظر دائماً إلى عالم منفانا الطويل في ضوء المحرقة الداكن. لكن ذلك بحد ذاته تشويه فاحش: هل يطلب المؤلف... بريمو ليفي، أو الشاعر بول سيلان أن نذبح الأبرياء في أرض بعيدة عن غابات بولندا المكتسية بالثلوج؟ هل قتل الأطفال عمل بطولي، ولو كانوا أطفال أعدائنا؟ هل إخواني سعداء وفخورون؟... وأصبح مما لا لزوم لقوله أن على اليهود المخلصين التحدث عن المحرقة. تجاهلوا صور القتلى والمحتضرين اليوم وركزوا على الصور السود والبيض المنقّطة التي تُظهر موت اليهود في قرى بولندا، في أوشفِتز وسوبيبور وبيرغن — بلسِن. إننا الضحايا الحقيقيون الأوائل والوحيدون، مناصرو العجز إلى الأبد."(14)

من أجل ماذا هلك أفراد عائلتي في الغيتوات ومعسكرات الاعتقال في بولندا؟ وهل دورهم أن يُستغلوا، وعند الغياب الموقت للعنف يتم نسيانهم وهجرهم؟

لقد وقف الناجون من المحرقة بين الماضي والحاضر، شهوداً، بصمت أحياناً، وأحياناً بكلام غير مسموع في الغالب. مع ذلك فقد وقفوا بيننا كتحد أخلاقي وكتجسيد أيضاً للتاريخ ونمط الحياة والثقافة التي تسبق المحرقة والصهيونية بكثير (والتي شوهتها الصهيونية منذ مدة طويلة)، رافضين، على طريقتهم الخاصة، أن يدعونا نتجاهلهم. لكن هذا الجيل يقترب من نهايته، وأتساءل، بينما هم يغادروننا، ما الذي بقي حقاً ليشغل مكانهم، ويملأ الخواء الأخلاقي الذي يحدثه غيابهم؟

هل هي، كما يقول أحد أصدقائي، وهو نفسه يهودي، "صناعة ذاكرة، بتماثيل، ومتاحف، وفصائل من (العلماء) مصمّمة للمحافظة على المشاعر اليهودية بالاضطهاد والمعاناة، إذ يوجد هتلر خلف كل كاتيوشا أو اشتباك حدودي، ويجب التصدي له ببعض أدوات المسلخ نفسه التي استخدمها النازيون ضد اليهود قبل ستة عقود: الغيتوات، والاعتقالات الجماعية، وتشويه إنسانية العدو"؟ هل نقيس النجاح اليوم بعدد الجثث البشرية والمذابح، ونقول إن جثثنا أكثر قيمة من جثثهم، وأطفالنا أكثر تعرضاً للمخاطر وأكثر قداسة من أطفالهم، وهم بحاجة أكثر إلى الحماية والحب، وجثثهم أكثر أحقية بالأكفان والدفن؟ هل يُستمد المعنى بالنسبة إلينا من الشهادة أم من الأطفال المولودين وفي قلوبهم سكاكين؟ هل هذه هي الطريقة لتذكّر جدي وجدتي؟

إن ماضينا الحافل بالعذاب وصوره يتعدى على حاضرنا لا في إسرائيل فحسب، بل في غزة ولبنان أيضاً. وقد كتب مراسل صحيفة "نيويورك تايمز" في لبنان: "تم دفنهما موقتاً في قطعة أرض فارغة إلى جانب العشرات غيرهما. ومنحت زوجته وابنته رقمين: علياء رقم 35 وسالي رقم 67. ويقول الوالد: (أصبحتا رقمين الآن). لم يعد هناك أسماء."(15)

كما ورد في صحيفة "واشنطن بوست" ما يلي: "كانوا شخوصاً متقلصة، يعانون الجفاف والجوع. بعضهم عاش على قطع الحلوى، وآخرون على الخبز اليابس. وبعضهم أصيب بصدمة القصف، وجوههم خالية من التعابير... واحد منهم لم تكتب له النجاة. نُقل على حمالة، وقد حط الذباب على عينيه اللتين غادرتهما الحياة وبقيتا مفتوحتين."(16)

علينا أن نسأل، كمطالبين محقين بماضينا، ما هو مقدار الضرر الذي يمكن إلحاقه بالروح؟ لكننا لا نسأل. نحن لا نتساءل عن الدمار وإنما عن عدم قدرتنا على إتمامه، وإيجاد مزيد من مواقع المذابح.

هل يمكننا الاستيقاظ من سباتنا، وامتلاك القدرة على التفجع على الدمار؟

إجلاؤنا الأخير

إلى أين ينتمي اليهود؟ أين هو مكاننا؟ هل هو في غيتو دولة يهودية تنطوي حدودها المتقلصة على خطر طردنا ذات يوم؟ إننا جبارون، لكن لسنا أقوياء. وجبروتنا ضعف، لا قوة، لأنه يُستخدم لبث الخوف بدلاً من الثقة، ولذلك سيدمرنا ذات يوم إذا لم نتغير. وسنجد أنفسنا منفصلين عن ماضينا أكثر فأكثر، ومعلقين ومهجورين ومنعزلين، من دون مرسى، متحرقين إلى علاقة وعون – إذا لم يكن الآن ففي نهاية المطاف. وكان كتب غروسمان أن الحلم عندما يخبو لا يصبح قوة أضعف وإنما أكثر اقتداراً، ويُتعلق بها بشكل يائس حتى لو دمرت وخربت.

نحن نستهلك الأرض والماء خلف جُدُر وبوابات فولاذية مجبِرين الآخرين جميعاً على الخروج. أي نوع من الأماكن هذا الذي ننشئه؟ هل قَدَرنا أن نكون دخلاء على الغبار، إذا استعرنا عبارة فوكنر، يتلاشى حضورنا مع تحرك الرمال؟ هل هذه هي حدود انبعاثنا بعد المحرقة؟

لقد صرت أتقبل أن الجبروت والسيادة اليهوديين لا ينسجمان مع الأخلاق اليهودية والاستقامة الروحية في غياب الإصلاح، وأنهما غير قادرين على التعايش أو التوافق فيما بينهما. فإذا كان الجهر بمعارضة القتل الجائر للأطفال يعد عدم ولاء وخيانة بدلاً من خلاف مشروع، وعندما يكون الخلاف عديم الفعالية ومُداناً بشدة، يفرض علينا في نهاية المطاف الاختيار بين الصهيونية واليهودية.

لقد شدد الحاخام الأكبر هيليل على الأخلاق كمحور للحياة اليهودية. فالمبادئ الأخلاقية أو غيابها تساهم في بقاء شعبنا أو في فنائه. مع ذلك، فإن ما نواجهه شيء مختلف وربما أكثر انحرافاً: فهو ليس اختفاء نظامنا الأخلاقي وإنما إعادة كتابته على نحو مشوه وكريه.

باعتبارنا يهوداً في عالم ما بعد المحرقة أصبحنا أقوى بوجود دولة يهودية، كيف ننبعث من الوحشية والإذلال كشعب قوي وإنساني أيضاً؟ لا يزال ذلك أمراً يروغ منا. كيف نتجاوز [ثنائية] الخوف والقدرة المطلقة، ونتجاوز البراءة والاعتماد على القوة العسكرية، كي نتصور شيئاً مختلفاً، حتى لو كان غير يقيني؟ يتساءل أحاد هاعام، الأب المؤسس للصهيونية الثقافية، "كيف يمكنك أن تجعل أمة تتوقف هنيهة لتفكر؟"(17)

تكمن الإجابة بالنسبة إلى كثيرين من اليهود (والمسيحيين) في وجود دولة يهودية قوية ومعسكرة. وبالنسبة إلى آخرين في البقاء بحد ذاته. وبالنسبة إلى والديّ، كان إلحاق الهزيمة بهتلر يعني عيش حياة أخلاقية. لذا سعيا لعالم يكون فيه "الجزم ممكناً... والمعارضة إلزامية"،(18) بحيث تستعاد قدرتنا على أن نكون شهوداً ويُعترف بحقنا في ممارستها، وبحيث نرفض كشعب أن تتغلب الظلمة علينا.

هل يمكننا أن نبتعد عن قدرتنا على التدمير؟

هنا أريد أن أشارك في قصة عن عائلتي، لأصف لحظة ألهمت أعمالي وكتاباتي كافة.

حرر الجيش الروسي أمي وشقيقتها من معسكر الاعتقال. وبعد أن ألقى الجنود الروس القبض على المسؤولين النازيين والحراس الذين يديرون المعسكر، بلّغوا الناجين اليهود أن في وسعهم عمل ما يشاؤون بمضطهِديهم الألمان. هاجم كثيرون من الناجين، وهم أنفسهم ناحلون وأحياء بشق النفس، الألمان وأوسعوهم ضرباً وتقتيلاً. أمّا أمي وخالتي اللتان كانتا واقفتين على بعد أمتار فقط عن المشهد الرهيب الذي كان يتكشف أمامهم، فقد احتضنت إحداهما الأُخرى وأخذتا تنتحبان. عانقت أمي، وهي الأقوى بدنياً، خالتي وضمتها إليها، بينما أمسكت خالتي، التي كانت تجد صعوبة في الوقوف، بأمي كأنها لن تفلتها البتة. وقالت لها: "لا يمكننا أن نفعل ذلك. أبونا وأمنا سيقولان إن ذلك خطأ. حتى الآن، بعد كل الذي كابدناه، علينا أن نسعى وراء العدالة لا الانتقام. وما من سبيل آخر سوى ذلك." كانت أمي لا تزال تبكي، فقبّلت شقيقتها واستدارتا مبتعدتين وهما لا تزالان متعانقتين.

ما هو، إذاً، مصدر نجاتنا وخلاصنا؟ إنه يقع، في نهاية المطاف، في رغبتنا في الاعتراف بالآخر – الضحايا الذين أوجدناهم – الفلسطينيين واللبنانيين واليهود أيضاً – والظلم الذي ارتكبناه كشعب محزون. وربما نستطيع عندئذ أن ننشد حلاً عادلاً نسعى فيه لأن نكون عاديين بدلاً من كاملين، وندرك أخيراً أن أملنا الوحيد يجب ألاّ يكون أن نموت بسلام في بيوتنا، كما عبر عن ذلك أحد المسؤولين الصهيونيين منذ مدة طويلة، لكن أن نعيش فيها بسلام.

عندما غُمرت ابنتي جِسْ بمياه المِكفاه مرة ثالثة وأخيرة، بلّغتني أنها شاهدت أقواس قُزح تحت الماء. وسأعتبر هذه الصورة الجميلة علامة على انبعاثها، وأتطلع إلى انبعاثنا بتوق شديد.▪

(*) باحثة في مركز الدراسات الشرق الأوسطية في جامعة هارفرد، الولايات المتحدة الأميركية.

ترجمة: عمر الأيوبي.

المصادر

(1) تقول القصيدة المفضلة لدى إدوارد سعيد "في انتظار البرابرة"، وهي من نظم قسطنطين كاڤافي، "كان، ذلك الشعب، نوعاً من الحل." أنظر: Aliki Barnstone, trans., The Collected Poems of C.P. Cavafy: A New Translation (New York: W.W. Norton, 2006).

(2) Jacqueline Rose, "Suffering and Injustice Enough for Everyone – On Empathy and the Complexity of Political Life, Essay in Honor of Edward Said," History Workshop Journal, Issue 57 (Spring 2004).

(3) ظهرت أجزاء من هذه المقدمة، التي نقحت، في:
Humanism, Scholarship and Politics: Writing on the Palestinian-Israeli Conflict," In Sara Roy, Failing Peace: Gaza and the Palestinian-Israeli Conflict (London: Pluto Press, 2007), pp. xi-xxiii."

(4) Ze'ev Schiff, "Analysis/For Israel, the Conflict in Lebanon is a Must-Win Situation," Ha'aretz, July 26, 2006; July 30, 2006.

(5) Harry de Quetteville, "You're All Targets, Israel Tells Lebanese in South," July 28, 2006.
أنظر: Telegraph.co.uk

(6) Gideon Levy, "Days of Darkness," Ha'aretz, July 30, 2006.

(7) وقد وضع الإعلان المحافظون الجدد الإسرائيليون. أنظر: Ha'aretz, July 30, 2006.

(8) Yesha Rabbinical Council, "During Time of War, Enemy has no Innocents," July 30, 2006.
أنظر: ynetnews.com

(9) Rabbinical Council of America, "RCA Solidarity Mission to Israel Expresses View of (Tohar Haneshek) in Light of the Unprecedented Realities of Recent War with Hezbollah," August 17, 2006.
أنظر: www.rabbis.org

(10) Leonard Fein, "Was There Really No Other Way?," August 11, 2006.
أنظر: Forward.com

(11) نقلاً عن: Maxwell Taylor Kennedy, Make Gentle the Life of this World: The Vision of Robert F. Kennedy (New York: Harcourt Brace, 1998), pp. 74-75.

(12) Jacqueline Rose, The Last Resistance (London: Verso, May 2007).

(13) رسالة إلى المؤلفة تلقتها من زميل وصديق، تموز/يوليو 2006.

(14) Silvia Tennenbaum, "Why doesn't Israel Work for Peace?," August 4, 2006.
أنظر: Newsday.com

(15) After Bomb Kills Loved Ones, Life Turns Ghostly in Lebanon," New York Times, August 8, 2006."

(16) Anthony Shadid, "Survivors Rise from Rubble of Battered Lebanese Village," Washington Post Foreign Service, August 1, 2006.

(17) أنظر: Jacqueline Rose, The Question of Zion (Princeton: Princeton University Press, 2005).

(18) Marc H. Ellis, O, Jerusalem! The Contested Future of the Jewish Covenant (Minneapolis, MN: Fortress Press, 1999).

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx